الأنثى : الوظيفية والإيروسية*

جان بودريار

ترجمة : محمد الرضواني

يعد الجسد ضمن ترسانة الاستهلاك اليوميمن الموضوعات الثمينة والجميلة و الأكثر إشعاعا من أي موضوع آخر. إنه مليء بالإيحاءات التي تفوق تلك التي تحيل عليها السيارة وهي بؤرة الإيحاءات ومركزها. ف" اكتشافه الجديد" بعد فترةطويلة من الطهرانية ، ضمن موجة التحرر الجسدي والجنسي، وكذاحضوره القوي في الإشهار (وخصوصاالجسد الأنثوي، ويجب أن نعرف لماذا) والموضة والثقافة الجماهيرية، - ما يحيل على الطقوس الصحية والغذائية والعلاجية، والرغبة في الحفاظ على الشباب الأناقة والأنوثة الحقيقة، والأدوية وأنواع الحمية و ما يصاحبها من التضحيات، وأسطورة اللذة التي تحيط بكل–هذه العناصر تشهد اليوم أن الجسد تحول إلى موضوع للخلاص . لقد حل محل الروح ضمن هذه الوظيفة الأخلاقية والإيديولوجية.

هناك دعايةتذكرنا دون كلل ، بما يشبه النشيد اليومي، أننا لا نملك سوى جسد واحد ويجب أن نحميه،ولقرون خلت لم يتو قفوا عن إقناعنا أن لا جسد لنا ، (لم ينجحوا في مسعاهم) ويلحون الآن على إقناعنا بأننا نملك جسدا . وفي هذا السياق هناك شيء غريب. ألا يمكن القول إن الجسد هو البداهة ذاتها ؟ يبدو أن الأمر ليس كذلك : إن الجسد واقعة ثقافية. فطريقتنا في تنظيم علاقتنا بالجسد تعكس،في كل الثقافات، نمط علاقتنا بالأشياء ونمط علاقاتنا الاجتماعية. فما يسري في مجتمع رأسمالي، على الملكية الخاصة يسري على الجسد أيضا، ويسري على الممارسة الاجتماعية والتمثلات الذهنية التي نملكها عنه. ووفق التصورالتقليدي، وهو كذلك عند الفلاح مثلا، لا وجود لاستثمار نرجسي، ولا لتصور فرجوي للجسد، بل هناك رؤية أداتية _سحرية منبثقة من سيرورة العمل والعلاقة مع الطبيعة.

وملحاول البرهنة عليه هـ و أن البنيات الحالية للإنتاجوالاستهلاك تولد عند الذات ممارسة مزدوجة، مرتبطة بتمثل غير موحد لجسدها الخاص (ولكنها تامة الوحدة والترابط) : تمثل خاص بالجسد

باعتباره رأسمالا، وكمل خاص بالجسد باعتباره فيتيشة (موضوعا للاستهلاك). وفي الحالتين معا ليس مهما أن يكون الجسد ، مستثمرا بشكل قصدي، (بالمعنى المزدوج للكلمة النفسي والاقتصادي)، وهذا لا يعني إهماله أو نفيه.

المفاتيح السرية لجسدك

تقدم مجلة **ELLE** مثالا رائعاعلى هذا الامتلا كالجديد والموجه للجسه من خلال مقال بعنوان " المفاتيح السرية لجسدك، تلك التي تنير لك طريق حياة بلا عقد ".

سُيتهل النص بالجملة التاليـ ة :" إنجسدك هو في لوقت ذاته حدودك وحسك السادس "، ويتخذ المظهل جديا من خلال بسط التكون النفسي، على شكل رواية، لامتلاك الجسد وصورتـ ه : " بعد مرور ستة أشهر ستدركين، بشكل غامض ، أن لك جسدا متميزا "، تلميح إلى مرحلة المرآة ("يسمي العلماء النفس هذا ...")، تلميح دون إثارة إلى المناطق الإيروسية في الجسد (يقول فرويد إن...)، وبعد ذلك يتم الانتقال إلى الأمور الأساسية : "هل تشعرين بتوافق مع جسد ك ؟" مباشرة تقول **ب ب** إنها "تشعر بتوافق رائع مع جسدها "، "فكل مناطق جسدها جميلة ، الظهر والعنق وجوانب البطن". " فما هو سر **ب ب**؟ إنه يكمن في كونها تسكن فعـ لا جسدها. إنها شبيهة بحيوان صغير يملأ بالضبط ثوبه " (هل تسكن جسدها أم ثوبها ؟)فمن يشكل المقاومة ا لثانوية الجسد أم الثوب؟ بالضبطإنها تلبس جسدها كما تلبس الثوب ، وهو ما يحيل هنا على مبدأ لعبي يدعمه " الحيوان الصغير".فإذا كانت ا لروح " قديما هي التي تغطي الجسد "فالجسد هو الذي يغطيها الآن. ولكن الحسد هنا لا يقدم في حالة عري (أي الرغبة) : الجسد هنا باعتباره ثيابا للتميز والمقاومة الثانوية، هنا باعتباره علامةوباعتباره إحالة على الموضة (أي قابلا لأن يعوض الثياب دون أن يغير مرجعنده، كما يبدو ذلك من خلال الاستغلا ل الحالي للعري في المسرح وفي أماكن أخرى، حيث تبدو المرأة، على الرغم من الإثارة الجنسية المزيفة، باعتبارها حدا إضافيا ضمن إبدال لباس الموضة).

فلنعد الآن إلى النص الذي تحدثنا عنه . "يجب أن تكوني حاضرةي ذاتك، أن تتعلمي كيف تقرئين جسدك " (وإلا، فأنت ضد **ب ب**)." تمددي على الأرض، افتحي ذراعيك، وداعبي ببطء بأصبعك يدك اليمنى ذلك الخط غير المرئي الصاعد من البنصرعلىامتداد ذراعك إلى المرفق والإبط . هناك آخر شبيهه موجود في فخذيك .إنها خطوط الحسا سيةإنها خارطة الحنان في جسدك . هناك خطوط أخرى

للحنان موجودة على امتداد عمودك الفقري وفي عنقك وبطنك وكتفيك ... وإذا كنت تجهلين وجود هذه الخطوط فسيصيب جسدك حالة كبت كتلك التي تصيب نفسيتك ... إن مناطق الجسد التي لا تزورها حساسيتك ولا يزورها فكرك،هي مناطق مهملة... لن تتم الحركة بشكل جيد ، فهي في حاجة إلى طاقة . أو تصيبه التهابات مزمنة () ..." وبعبارة أخرى: إذا لم تقومي بعبادة جسدك، وإذا تجاهلته فستنالين عقابك . إن شكواك هي نتيجة استهتار تجاه نفسك (خلاصك). فبعيدا عن الإرهاب الأخلاقي الغريب الذي يحوم حول "خارطة الحنان هاته " (وهو ما يعادل الإرهاب الطهراني، فقط هنا ليس الله هو من يعاقب ، بل الجسد من يقوم بذلك - الجسد الذي أصبح فجأة محفلا شيطانيا وقمعيا وينتقم إذا لم تكوني حنونة معه)وهكذا يبدو أن هذا الخطاب، الذي يتظاهر بأنه يريد أن يصالح كل امرأة مع نفسها، يدرج بين الذات والجسد الموضع (objectivé)باعتباره تهديدا مزدوجا ، نفس العلاقات التي هي علاقات الحياة الاجتماعية، ونفس التحديدات التي هي الروابط الاجتماعية : ابتزاز وقمع وحالات اضطهاد، العصاب الزواجي (المرأة التي تقرأ هذا الكلام هي ذاتها التي ستقرأ بعد صفحات ما يلي إذا لم تكوني حنونة مع زوجك فستتحملين فشل زواجك)، فبعيدا عن هذا الإرهاب الضمني الذي يتوجه في مجلة **ELLE** بصفة خاصة إلى النساء، وهو أمر بالغ الأهمية ، هناك التلميح إلى التسلل إلى الجسد والاستيلاء عليه بشكل نرجسي " من الداخل" لا من أجل معرفته بعمق ولكن ، ووفق منطق التعبد الصنمي والفرجوية، من أجل تشكيله باعتباره موضوعا أكثر ليونة وأكثر كمالا وأكثر وظيفية.إن هذه العلاقة النرجسية، ولكنها نرجسية موجهة ، تتوجه إلى الجسد " باعتباره " أرضا"بكرا ومستعمرة، و تكتشفه " بحنان" باعتباره منجما يجب أن يستغل لكي نستخرج منه العلامات الجلية الدالة على الصحة والجمال والحيوانية المنتصرة على سوق الموضة . إن هذه العلاقة تجد تعبيرها الصوفي في اعترافات القارئات : "لقد اكتشفت جسدي . لقد اجتاحتني الأحاسيس في كامل صفائها ". بل هناك ما هو أهم: " لقد حدث ما يشبه العناق بيني وبين جسدي . وبدأت أحبه، وأنا أحبه قررت أن أعتني به بنفس الحنان الذي أغدقه على أنبائي". إن هذا التقهقر العاطفي نحو الطفل / الجسد، الجسد/التحفة بالغ الدلالة، فهو استعارة خصبة على قضيب مدلل ومهدهد الخ... ومخصي.وبهذا المعنى، فالجسد الذي أصبح أجمل شيء مشتهى ، يستأثر بكل أشكال العواطف التي يقال عنها إنها سوية (اتجاه شخصيات أخرى واقعية)، دون أن يتخذ مع ذلك قيمة خاصة.ذلك أنه ضمن سيرورة الانحراف هاته، يمكن لأي موضوع، وفق نفس المنطق التعبدي، أن يلعب هذا الدور. إن الجسد ليس سوى أجمل هذه الأشياء الممتلكة والمتحكم فيها والمستهلكة.

ولكن الأهم في كل هذا هو أن هذا الاستثمار النرجسي الجديد الذي هُلل له باعتبارها تحريرا صوفيا وإنجازا، هو باستمرار استثمار فعال وتنافسي واقتصادي. فالجسد كما تمت " إعادة امتلاكه " هو كذلك وفق غايات " رأسمالية "،بعبارة أخرى، إذا كان قد استثمر ،فإن ذلك تم من أجل الحصول على ربح. إن هذا الامتلاك الجديد للجسد لم يتم وفق غايات مستقلة للذات، ولكن وفق مبدأ معياري للذة والمردودية الهيدونية (hédonisme)، وفق إكراهات البعد الأداتي الذي يقاس مباشرة على سنن أو معايير مجتمع للإنتاج والاستهلاك الموجه وبعبارة أخرى، يدار الجسد ويهيأباعتباره تراثا، ويتم التحكم فيه باعتباره واحدا من الدوال المتعددة للوضع الاجتماعي . فالمرأة التي قالت " إنها تهتم بجسدها بنفس حنان اهتمامها بأبنائها "، تضيف مباشرة "بدأت أتردد على محلات التجميل ... إن الذين رأوني بعد هذه الأزمة وجدونيسعيدة وأكثر جمالا ...". فالجسد المستعاد باعتباره أداة للذة ومظهرا من مظاهر التميز أصبح موضوعا لعمل استثماري (تشهي، حب استحواذي) ويشكلدون شك ، من خلال أسطورة التحرير التي يحاولون إسباغها عليه، عملا مستلبا أكثر عمقا من استغلال الجسد ضمن قوى العمل (1).

الجمال الوظيفي

يعد الجمال والإيروسية، ضمن هذه السيرورة الطويلة لتقديس الجسد باعتباره قيمة دليلية، للجسد الوظيفي، أي الذي لم يعد " لحما" كما هو الحال في الرؤية الدينية، ولا قوة عمل كما هو الحال في المنطق الصناعي، بل استعيد من خلال ماديته (أو من خلال مثاليته " المرئية")باعتباره موضوعا للعبادة النرجسية أو عنصرا للعمل والطقوس الاجتماعية، شعاران هامان في هذا المجال.

إن هذين الشعارين مر تبطان بعضهماالبعض ارتباطا وثيقا ، واستنادا إليهما تقوم الأخلاقية الجديدة للعلاقة مع الجسد. وهو أمر يصدق على المرأة كما يصدق على الرجل، ولكنهما يختلفان عن بعضهما عطى من خلال قطب مؤنث وآخر مؤنث : **المظهر الجمالي والمظهر الرياضي.** وبهذا يمكن أن نعين النموذجين المتقابلين اللذين يتبادلان معطياتهما الأسا سية. ومع ذلك، فإن النموذج الأنثوي يمتلك ما يشبه الأولويةفهو الذي يشكل الخ طاطة الموجهة لهذه القيم الجديدة، وليس من باب الصدفة أن نعثر في مجلة **ELLE** على النص الذي حللناه أعلاه (2).

لقد تحول الجمال عند المرأة إلى ضرورة ملحة ، بل أصبح حالة دينية. فأن تكون المرأة جميلة فلا فضل في ذلك للطبيعة، ولا إضافة تأتي بها الأخلاق، بل الجودة الأساسية والملحة والتي تقدمها لها التي تعالج

وبهجها وقدها كما تعالج روحها .. إنه علامة دالة على النجاح على مستوى الجسد، كما هي علامة دالة على النجاح على مستوى الأعمال. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الجمال والنجاح يتمتعان في المجلة بنفس الأساس التصوفي: عند المرأة ، الحساسية التي يجب أن تكشف وتثير من " الداخل" كل أجزاء الجسد، أما عند المقاول، فالأمر يتعلق بالحدس المناسب لكل احتمالات السوق. إنها علامة دالة على الخلاص: إن القيم البروتستنتية ليست غريبة عن هذا الأمر. صحيح أن الجمال ليس ضرورة مطلقة إلا لكونه شكل من أشكال رأس المال.

فلنتبع هذا المنطق إلى حدوده القصوى: إن قيم الجمال، التي هي قيم الموضة أيضا، يمكن أن تتحدد ، باعتبارها اختزالا لكل القيم الملموسة، " قيم استعمال " الجسد (طاقوية، إيمائية، جنسية)، في قيمة واحدة في شكلها المجرد هي فكرة الجسد الرائع، الحقيقي، فكرة الرغبة في الوصول إلى الرعشة الكبرى- ومن خلال ذلك يتم نفيها ونسيانها بطبيعة الحال في واقعها لكي تستنفد ضمن تبادل للعلامات. ذلك أن الجمال ليس شيئا آخر سوى مادية العلامات التي يمكن مبادلة بعضها ببعض ، فالجمال يُنظر إليه هنا باعتباره قيمة/علامة. ولهذا السبب يمكن القول إن ضرورة الجمال هي صيغة للضرورة الوظيفية – وهذا يصدق على الأشياء كما يصدق على النساء (والرجال أيضا)- إن أستاذة التجميل، التي تعد كل امرأة كذلك، هي نظير المصمم في المقاولات.

زد على ذلك، إذا أخذنا بعين الاعتبار المبادئ المهيمنة للجمالية الصناعية- الوظيفية-أدركنا أنها تنطبق على ميثاق الجمال ببساطة: ف **ب. ب** التي أحست أنها "مرتاحة في جسدها " أو أنها " تملأ بالضبط ثوبها" هي نفس الخطاطة " التي "تلائم بشكل متناسق بين الوظيفة والجمال"

الإيروسية الوظيفية

إن الجنس، استنادا إلى التصور الذي بسطنا أسسه فيما سبق، هو الذي يوجه في كل مكان " إعادة اكتشاف " واستهلاك الجسد. إن ضرورة الجمال ، التي هي ضرورة تثمين الجسد من خلال الاستثمار النرجسي، تستدعي الإيروسية باعتبارها تثمينا جنسيا يجب أن نميز بوضوح بين الإيروسي، باعتباره بعدا معمما للتبادل في مجتمعاتنا، وبين الجنس بمفهومه الدقيق يجب أن نميز بين الجنس الإيروسي، وهو سند للعلامات التي يتم تبادلها عن الرغبة، وبين الجسد باعتباره بؤرة للاستيهام ووعاء للرغبة . ففي الجسد-الإثارة، الجسد –الاستيهام تهيمن البنية الفردية للرغبة. أما في الجسد الذي ينظر إليه باعتبار إيروسيته، فإن الهيمنة تعود للوظيفة الاجتماعية للتبادل. وبهذا المعنى فإن الضرورة الإيروسية التي تمر

من خلال سند أداتي للعلامات ، كما هو حال الآداب أو مجموعة أخرى من الطقوس الاجتماعية، فليست سوي نسخة أو استعارة للضرورة الوظيفية (باعتبارها ضرورة إستتيقية في الجمال).

إن " الحرارة" المنبعثة من امرأة " مجلة **ELLE** هي جزء من حرارة مجموع الأثاث الحديث: إنها حرارة " المحيط"إنها ليست مرتبطة بـ الحميمية والشهوانية، بل بالدلالة الجنسية المحسوبة. إن الشهوانية حرارة. أماالجنس من جهته ،فهو حار وبارد ، كهلي لعبة الألوان الحارة والباردة للجو الداخلي " الوظيفي" للمنزل. إنها تمـ لك خاصية " البياض"التي تتمتع بها الأشكال التي تغلف الأشياء الحديثة ،" المصممة " و" الملبوسة".والأمر لا يتعلق بالقطع ب " برودة"، كماهي شائعة ،ذلك أن البرودة الجنسية تعني ضمنيا رنة جنسية للاغتصاب. فالعارضة ليست باردة جنسيا: إنها تجريد.

إن جسد العارضة ليس موضوعا للرغبة، إنهموضوع وظيفي، محفل للعلامات حيث تختلط الموضة بالإيروسية.وليست تأليفا لإيماءات حتى وإن كانت فوتوغرافيا الموضـ تستعمل كل طاقتها الفنية من أجل إعادة خلق الإيمائية والطبيعية من خلال سيرورة للمحاكاة(3)، إنها ليست جسدا بل شكل.

وعند هذه النقطة بالذات يخطئ كل الذين يمارسون الرقابة (و يريدون أن يخدعوا أنفسهم): ذلك أن الجسد العاري في الإشهار والموضة (جسد المرأة أو الرجل) لا يقدم نفسه كلحم وجنس، كغاية للرغبة، إنه يحيل، علىالعكس من ذلك ، على الأجزاء الممزقة (4) ضمن سيرورة هائلة للتسامي والتوسل للجسد من خلال إثارته ذاتها.

فبما أن مثوى الإيريوسية هوالجسد لا الرغبة ،فإن الجمال الوظيفي للعارضات موجود في " القد"، لا في التعبير. بل هو أولا وأخيرا غياب للتعبير. إن غياب الانتظام أو القبح يعطيان معنى: إنهما مقصيان. ذلك أن الجمال موجود كله في التجريد ، في الفراغ في شفافية الافتتان . ويمكن اختصار هذا اللاتجسد في نهاية الأمر في النظرة، تلك العيون الفاتنة والمفتونة، الموجودة في الخلف، تلك النظرة التي لا موضوع لها- إنهافي الوقت ذاته دلالة مضاعفة للرغبة وغياب مطلق لها - إنهما جميلتان في انتصابهما الفارغ، في شهوانية الرقابة المسلطة عليهما، تلك هي وظيفتهما . عينان مسمرتان، علامات خالصة . إن معنى الجسد يوجد في امتداده المكشوف المندفع،عينيه العجيبتين اللتين تحاصرهما الموضة لا اللذة . إنها حقيقةالجسد الذي يندثر في سـ يرورة مغناطية. ولهذا السبب،فإن الجسد ، جسد المرأة خاصة، وجسد النموذج المطلق الذي هو العارضة على الخصوص، يتأسس كموضوع شبيه بالموضوعات الأخرى التي نُزع عنها الطابع الجنسي والوظيفي الذي يتضمنه الإشهار.

هوامش

*النص مأخوذ من : Jean Baudrillard : La société de consommation, éd Folio, 1970 من الصفحة 199 إلى الصفحة 210

1-وهناك نص آخر نموذجي نشرته مجلة Vogue: "رياح جديدة تهب على عالم الجمال، رياح تتمتع بالحرية والصحة وتـــزدري النفاق إن الأمر يتعلق بكبرياء الجسد ، إنه ليس ادعاء، فتلك مسألة سوقية. ولكنه الوعي التزيه القائل بأن جسدنا يستحق القبول، ويستحق المجلى والعناية لكي يستعمل بشكل جيد . نحن سعداء أن ركبتينا تتمتعان بالرشاقة، وننتشي بطـــول ســـاقينا، وبخفـــة قدمينا.... (نستعمل من أجلهم قناع ا شبيها بقناع الوجه... ندلك الأصابع بكريمة خارقة للعادة " أسرع من الصوت " ونبحث عن مطبب للأرجل ... انظروا كيف ذلك في ص 72). نحن مبتهجون للعطور الجديدة التي تتخذ شكل شراع يضمخ الجسد إلى أخمص القدمين....)

2-إن النص الذكوري الذي يوازي نص ELLe هو الدعاية " للرئيس" : " لا شفقة بالأطر ؟ (وهو نص رائع يلخـــص كـــل الثيمات التي تمت دراستها (النرجسية، انتظم الجسد المهمل، الآلية التقنية ، إعادة التكوين الوظيفي) –إلا أن النموذج الذكوري ينصب على " الشكل الفيزيقي" والنجاح الاجتماعي في حين انصب النموذج الأنثوي على " الجمـــال " والإغـــراء) : ســـن الأربعين إن الحضارة المعاصرة تطلب من الإطار أن يكون شابا ... فالكرش المنتفخة التي كانت قديما رمزا للنجاح الاجتمـــاعي، هي الآن رديف للفشل والارتكاس. فرؤساؤه وزوجته وكاتبته وخليلته وأطفاله والشابات في التنورات القصيرة جدا اللائي يغازلهن في فضاء مقهى مع الأمل في ... كل هؤلاء يحكمون عليه انطلاقا من نوعية ملابسه وأسلوبها، واختياره لربطة عنقه وعطره ورشاقته وقدمه الممشوق.

3- بالمعنى التقني حيث يتم تجريب شروط الجاذبية اصطناعيا – أو نماذج للاستثارة الوهمية للرياضيات، وهو أمر مختلـــف عـــن الاصطناعية (الإخفاء) التي تعرض باعتبارها نقيضا للطبيعة.

4-إن حقيقة الجسد هي الرغبة، فالرغبة التي هي نقص غير قابلة للكشف عنها. إن أقصى حالات الظهـــور لا تعمـــل إلا علـــى تأكيدها باعتبارها غيابا ولا تقوم في واقع الأمر سوى بمصادرتها . فهل ستأتي مرحلة تكون فيها " الصور:" منتصبة " ؟ ولكنـــها ستنجز استنادا إلى إكراهات الموضة. إن الرقابة لا تخشى أي شيء في واقع الأمر، سوى من رقابة رغبتها الذاتية.